قصة قصيرة

الغجر.. إن يجيئوا ثانية!

سعد محمد رحيم

-1-

يأتون فجراً، طالعين من خاصرة الشمس وذات عشية يختفون.. يرحلون بلهفتي المجنونة.. لو أتبعهم... أكون معهم.. منهم، لأنهم وحدهم يملكون الهواء كله والليل كله والآفاق كلها، والسماء.

واحدة منهم أرتني المعجزة في مساء فائر عابث.. كان بين أصابعها السحر وعلى تكويرة بطنها البركان.. ومنذ ذلك الحين وأنا أبحث عنهم.

قالت سهى: عنهم أم عنها؟

قلت: عن بقية الحلم الذي تركوه.

أكدت: عنهم أم عنها؟

قلت: بل عنك.

وعنها بت أبحث.. عن سهى الضالعة بالترحال عبر مسافات الزمان.. سهى المتسربة كالضيف كأنها لم تكن، أو كما لو إنها راحت تقتفي آثار خطاهم، أولئك الغجر المولعين بالمتاهات.. كأنها سفينتهم.

أراهم تسوقها -وهي ملتفة تحبو- في فوضى معتز دقما -يسلطون حبالهم ويجمعون ويحثون حميرهم على الابتعاد- أو أراهم ضحوا بها بين خرائب مدينتنا هاربين من لعنة موسم شحيح؟ ومن يدري فربما أضاعوها في حمى جنون، هم الذين لا يفيق الجنون بسواهم.

قالت سهى: أتبحث عنهم فيّ؟

قلت: بل أبحث عنك فيهم.

في آخريات الربيع من كل سنة تتذكرهم المدينة.. تتطلع في شغف إلى أفق الشمس حيث يطلون. وحين يغيبون تستعجل المدينة رحيلهم كأنها تخاف فرحهم.. مصباتهم.. حرائقهم.. أحلامهم.. جنونهم وحريتهم.

تألفهم العصافير والقبرات والأطفال والكلاب السائبة التي يغادر بعضها المدينة لو افقهم، ولا تألفهم المدينة.. يتحدثون شتائمها وسوء ظنونها وغيرتها وأذاها. وحين يمضون يتوحدون ضاحكين فتبقى المدينة واجمة يغمرها الأسى لفراقهم والأسف والهدود.

هم ومن يسافر أبداً.. يتحاشى معارك الحروب ليتبع حتفاً منذ ألف ألف سنة.. أما لا يعرفون هم قبل غيرهم أنه محض سراب، وعلى الرغم من ذلك يلاحقونه.. وحدهم الغجر يلاحقون قدرهم ولا يدعونه يلاحقهم.

البقاء حصارهم، وفي الدائرة الرائعة التي يصنعون بباغتهم حلقة المدينة إذ تحت أولادها على رجمهم. وتنهال عليهم الحجارة فيخرجون من تحت خيامهم يردون بالحجارة الغاضبة، فتنفرط عصبة الأولاد وتكفي المدينة في خجل فتراهم يخبئون وملتهم بين عجائب أشيائهم ليهربوه سراً إلى جنة ليسوا ببالغيها أبداً.

-2-

دائرة الغجر بهرجة ألوان وغرائب خاضر بوة السكة الحديد. وكانوا ينزلون في المكان عينه دائماً خاض ربوة السكة كأن لهم بهذه البقعة صلة سرية.. ينتشرون بين حميرهم ويغيبون صائحين.. لا أحد يشاهد هذا الحشد المتآزر من الحمير إلا مع قدوم الغجر.. خيول قليلة تزهو في خبب راقص وسط الحضور المذهل في رتابته وسلامه للحمير. وكلاب متحفزة تحيط بالدائرة الأسرة.

وجاءت..

من هناك جاءت تمتطي حمارها، هائجة في عنفوان الماء عند الضائق الباغتة.. الشهوة في تطلع الصدر وفي التقل المفروش لفرذين على ظهر الحمار.. الشهوة في الابتسامة المغرورة لفم.. الشهوة في الانهمار الأعمى الوفير لشعر.. الشهوة في الانفراجة الحتمية لفخذين وهي راكبة كتفاً على صهوة العالم. والحمار يتحمل هذا العبء القليذ.. وانتظر الحمار ساكناً أو ربما نائماً وهي تعيط بالرغبة تأخذني لأول التيه.

سهى.. أنت آخر التيه.. خلاصة كتاب الرحيل.. خلاصة سفينة النساء وفتنتهن وشهوتهن، وكيدهن الباهر العظيم.

تلك المرأة في مساء المعجزة صرخت فتبحت كلاب طليعة الليل وحفل طير نائم أعلى شجرة التوت.. تحت التوت كنا.

قالت: هذه ليلتنا الأخيرة هنا.

قلت: ماذا لو أجيء معكم.

لو تأخذها لو في عينيها هدير بحر العسل.

قلت: سهى لا تنتظري هكذا.. بحر العسل يقسرني على الصياح.

قالت: هيا، صح.

صحت: أحبك سهى.. أحب جنونك الغجري.

ضجت العصافير أعلى أشجار التين والنارنج.

قالت: أنت المجنون.

قلت: يا ليت..

في ليل المجلة ذات كنت أتفت.. قالت الغجرية:

-الحرية أن لا تخاف.

قلت: سأجيء معكم.

قالت: لن تستطيع لأنك لم تجن بما فيه الكفاية.

قبلت تلال الحقيب على ساقيها.

قبلت على عجل دفق النبيذ على ساعد سهى.

قالت: انهض.. فضحكنا.

قلت: أنت المعجزة ثانية.

ومشينا في ظهيرة الحديقة.. ما كنت أتفت خوفاً أولم تكن هي الأخرى خائفة.. مساحة الحرام التي تركتها الحروب فينا أبعد ما كنا نفكر بها. وما كنا ندري الأشراك والألغام ومصدات النار مخبوءة في عصب الكون.. كنا نحلم.

قلت لها: ليكن لنا الهواء كله والنور كله والليل كله والآفاق كلها.. والسماء.

-3-

النجوم كانت بعيدة.. السماء موسيقى سكنت. والغجرية بعريها المتمرد الأبيض في برد الدالية راحت تصغي.. تحتوي مساء العاقبة، وكل مساء سيأتي.. حلماً تصير.. حنيناً غائراً كملين النهر.. مستحيلاً غاوياً. لا أقدر على الإمساك به إلا بعينيك سهى.. في فائض العسل والنبيذ المندلق على ساعديك ورعشة الحرية العصية.. هذا القرار منك.. إليك، والحرية أنت أقلت لها. وكنت غراً في غرق الراهقة ورنين صوتها يرهقني.. أيقونة كانت تحت شجرة التوت.. قارورة خمر تنمل دمي حتى هذه الساعة.. سهى هيا.

قالت سهى: أحقيقة كانت؟

قلت: موتاً كانت.

قالت: وأنا؟

قلت: هيا.. سأصرخ.

وصرخت: أحبك سهى.. أحب قافلة الغجر تلوح في أفق تعترفت وهنا

وبالضحكات تغرق سهى ترقاً أو خجلاً تلوح بملفولتها.. هكذا كنا نشطح وهي تمشي كأن الماء يغمر قدميها.. ملفلة تبعثر أحلاماً مهاوي الريح وشلال صباح الأطلال بأنفاسها.

في صباح الخواء ذاك لم يتركوا شيئاً.. حتى الخرق أخذوها، وعيدان الحطب وأوتاد خيامهم. لا شيء لتذكري سوى مذاق الدهشة من حقيب ساقيها.

ربما كنت أختها الصغرى -سهى- غجرية النجوم البعيدة تلك التي صيرت السماء موسيقى أراها إذ فاجأت وقاحتي.

-ماذا لو.. أيتها الغجرية.

-تعال.

قالت وجرتني، والشمس تسقط حمراء خلف الدالية.

عبرنا من ثغرة في السياج.. خضنا مستعمرات الحلفاء أنا وهي وحمارها.. فكرت إن لم يكن هناك من رآنا.

قالت لي: لا تخف.

قلت في سري: هي تقرأ الأفكار إذن.

قالت: تلك هي حرقتي.

ضحكنا معاً.. ثم..

على مهل تعرت لأصحو على رجولتي.

-4-

الغجر رؤى سنوات ما قبل الدم والرعب والبكاء.. تموج الأخضر حول راحة العمر ورشح الموسيقى. ندى العافية على أزهار البراري قبل حلول موسم الغبار.. المشهد الواسع وراءك سهى.. المشهد الغافل عن صدى طبول الحروب الآتية.. هدير القطار الأزرق في الضياء يحجب دائرة الغجر، وحتى تعبر آخر العربات يكون المنظر كله قد تبدل.. الغجر في حلة جديدة والحمير توحي بأغنية أخرى للسلام..

وكنا نغني -سهى- يتلاحق التصفيق بعد رعد الربيع.. تقول: قرابنا سيجيل بالمطر والكمأ والخصب، ونبقى نغني ولا نخاف.. وكنت خائفاً.

قالت:

-الحرية أن لا تخاف.

الحرية أنت -سهى-.. الخيل الحفر يشدني إلى الأشياء، والأشياء موسيقى تغلغلت في الضوء والهواء والأمداء والأرصفة والواجهات وهؤلاء العابرين خلل حلمي/ حريتي.. في بهجة حضورك.

-سأعلمك الجنون.

وكنت مجنوناً في انتظارها..

-5-

وجاءوا.. سنة بعد أخرى قوافل من شجن، يغنون، وتشتعل سيقانهم رقصاً وحرية.. يبيعون الخناجر وأسنان الذهب، ويستجدون الخبز، ويقرأون بخت الذين لا بخت لهم.. يقايضون الخبز بالأحلام.. السادة المتلفتون للأحلام هم، والمتحررون أبداً من سطوة الدراهم. وتلك الشيخ ذو النظرة اللامعة صرخ بأمراة وناولته قطعة معدن لامعة.

-أريد خبزاً أيا امرأة.. الفلوس لكم.. الفلوس ملعونة.

كم انتظرتها امرأة مساء الجمرات تلك.. المرأة التي في دوامة رائحتها نسيت أن أسألها عن اسمها، وبقيت أشم الرائحة كلما حل الغجر في جنوب المدينة، أو هاج مطر في سكون الليل.

استوقفت الشيخ الذي رفض الفلوس ورضي بالخبز مالاً.

-يا عم، لم لا تأتي تلك المرأة؟

احتواني الشيخ بألق عينيه الفرحتين.

-أية امرأة يا ابن أخي؟

-تلك التي....

ضحك الشيخ ووضع يده على كتفي.

-أحمق من يعشق وهو سجين.

-أين هي؟

-بل أين أنت؟

تركني وهو يصيح:

-أريد خبزاً.. الفلوس ملعونة.

ربيعاً بعد آخر كان السجن يضيق، والحنين يغدو وحشاً، ومنائر تلك النساء يتأى حتى رأيتك -سهى- وعثرت على وطن الغجر في أسفل شعرك، وفي غواية الأفق إذ يحتفي الغجر بجنونهم، وترقص تلك المرأة البعيدة حد الهلاك.

كيف لي أن أصدق -سهى- من غير أن أموت؟

كيف لي أن أصدق إنك أنت الأخرى لحقت بالغجر إلى بلادهم التي تلتف من أن تحتمل في الخرائط.. بلاد حدودها الهواء كله والنور كله والليل كله والآفاق كلها.. والسماء.

-6-

وتسللت -سهى- إلى ما وراء الأشياء.. كأنك كنت كائنة من حلم خرجت من مخمل حلم لهنيهة هي ما لبث الحلم وعادت ثانية إليه..

أتحرى بمجسة خارقة في صفحات الكتب التي قرأتها، ومساند المقاعد التي جلست عليها، أبحث عن ملمس أصابعك عني احتويتك مرة أخرى وأعيد تكوينك.. عني أخبئك في قرار مكين هو من خاصتي ولا أدعك منه تفلتين.

غير أنك تماديت -سهى-.. جرثومة الغجر استيقظت في دمك فتواريت.. صفقت ترعباً أهوائي وأحلامي.. لم تكافئ مديات الحلم التي رسمتها، وفضاء العشق الفسيح الذي تصورت أن لا نهاية له.. كيف قدرت على تخطي لا نهاياتي.. عرافة الغجر الجميلة لما لمست خطوط كفي في الملام قالت:

-ستتبعك غواية النساء، وستزلق الأرض أبداً من تحت قدميك.

ساعتها كنت قد بارحت لتوي هول النشوة.. إنتابني الفزع.

قالت: ذاك قدرك فعشه بحرية.

الحرية تشعلت في كرنفال القنابل، وحلقت سهى مع بقية الطيور الناجية، والقطارات غيرت مساراتها، والغجر تفرقوا متنكرين للربيع الذي بات يشيخ، وأنا تشردت في قفار المعارك.. ترقت ذاكرتي وتشرذمت أحلامي مع الرصاص.. عبثت كوابيسي بالأنين وعواء الجروح والرؤوس المقطوعة، وتسربت بالخوف.

-7-

كلما استعدت صورتك -سهى- أراك تحت سماء عريضة.. الأرض مفتوحة لهواء وضوء يسرحان في العشب والعشب رغيب يستطيب عري قدميك والزرقة لا تكف.. لا تكف.

سهى.. تحاصرين صمتي الهائج بألق عينيك..

بتروة الغجر الرحل.. بالشغف الرهيف يحسك بالأقاصي كما لو كنت تخترقين بي/ معي حواجز الليل والضباب وأسوار المدن اللامرئية ومخافر شرطة الحدود تشغيز منا لا بروض وصهيل حلم يبهجك التعب الذي يخفقه في ما وراء الجسد.

انتظرت بين حرب وحرب قافلة الغجر من دون جدوى وانتظرت بعد حرب وحرب ولم يأتوا..

كان آخر الربيع وضجة زرازير الفجر تدفعني إلى جنوب المدينة.. رأيت امرأة على حمارها تعبر ربوة السكة الحديد.. كانت تعبة من سفر أو عمل أو هم عميق.. كانت شاردة البال لا يتبعها وجودي، ولا تأبه لقطار صال قد يطل في أية لحظة ويهرسها..

في دخيلتي قلت: مذ انتهت حروبي الجديدة والقطارات لم تعد تأتي.

ومن غير أن تلتفت إلي صاحت: يا هذا.

اقتربت بوجل واضطراب.. التي الظلام الشاسع في عينيها قالت: أيها التعس.. ألفتن أن الغجر لن يجيئوا ثانية.

قلت: ماذا تعنين أنت؟

صمتت.

وقبل أن أردف بأي كلام آخر لكزت عنق حمارها فابتعدت بها وهي تتمتم، أو تردد كلمات أغنية حزينة، أو ربما كانت تلعن وتشتم.

فكرت أن أصرخ بها: سهى.. من يدري..

لعلني صرخت في البرية والريح راحة:

-سهى.

صار الصدى في الريح "سهى" وفي الضوء "سهى" وكنت وحدي، لا أثر لمرأة وحمارها، واقفاً على ربوة السكة الحديد أنظر إلى تلك الجهة التي عندها الغجر ينزلون إذا ما جاءوا..

الشاعر والعالم

إلى / محمود البريكان أنموذجا

سهيل نجم

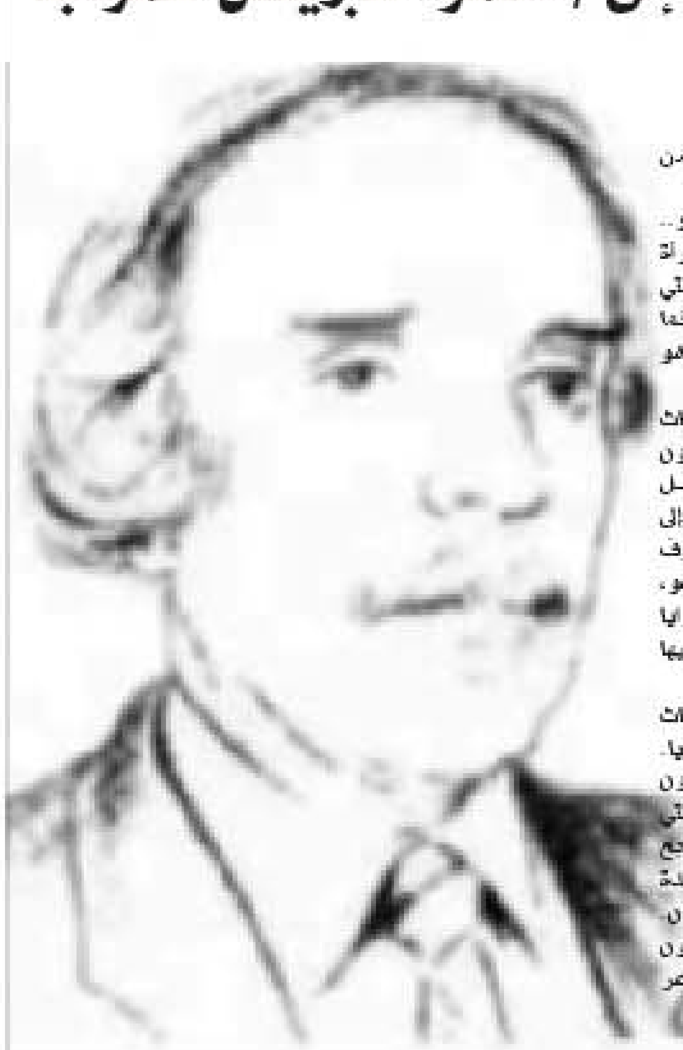

الشاعر والعالم صنوان.. لا يكون الشاعر شاعراً من دون العالم، ويخسر العالم روحه من دون وجود الشاعر.. قد يكون الشاعر، أو حريته أن يكون ضد الواقع ولكنه لا يكون ضد العالم، لأنه يتبادل والعالم الكينونة.

الشاعر ليس ذلك الإنسان الذي يكتب القصائد فحسب، إنه أبعد من ذلك وأكبر.. إنه من يقوم أشياء الواقع إليه ويردها إلى العالم لتكون ذات وجود آخر هو الوجود الشعري الذي يوحد الموسيقى الكونية بدلالات اللغة والمعاني التي تحتضن التأويل.

ثمة كثير من الناس يكتبون الشعر وهم ليسوا شعراء، وثمة كثيرون لا يكتبون الشعر لكنهم شعراء بالإحساس وفي أعماقهم ثمة علاقة مع العالم لا تفسر باللغة العادية اليومية، بل قد تكون ذات طابع ميتالغوي، حدسية، تترك وتثقل الحياة بخصوصية نادرة تنعكس على سلوكها الحياتي فتعيش الشعر.

العلاقة بين الشاعر والعالم، في ظني، أبدية ما دام الإنسان موجوداً. ولذلك فهي تعبر الزمان والمكان إلى المطلق، دون أن يعني ذلك أن الشاعر يكمن خارج التاريخ، لأنه إن خرج من التاريخ فقد خرج من الحياة. وذلك يعني أن الشعر أكثر الفنون التصاقاً بما هو روحي وخالد في الحياة الإنسانية.

إن الشاعر الحقيقي ذات متفجرة تنزع دائماً إلى التغيير والسمو، بعيداً عن الادعاء وحب التهور والنرجسية الرخيصة الفارغة من أي عمق. لذا فهو في أعماقه يخشى أن ينعت بـ"الشاعر" ويخاف من هذا الوصف أو يهابه لأن السعي وراء الألقاب من شأن الأرواح الصغيرة الضيقة الأفق، ولأن "الشاعر" من وجهة نظره، إنسان مسؤول عن الإنسان الآخر أكثر من أي أحد آخر سواء أكان امتهن السياسة أم التجارة أم غير ذلك. إن الشاعر الحقيقي يحس أكثر من غيره بالآخر وهو وحده القادر على إخراج روح الإنسان المطلق في كلمات ينسجها بروحه ويذوقها بدمه لتقول للآخر هذه حقيقتك ويضعها في يده كما يضع قلبه النابض.

الفقر أسئلة الشاعر، كما ارتقى رأسه إله إزداد ثراء.. اللغة

البعض تتحول لدى الشاعر الخاص لغته، عن ترقيها وعن برقعها وزيفها لتكون كاللؤلؤة التي تنزع محارتها. اللغة الشعرية بإيجازها ومجازها هي فكر الشاعر الذي يسعى إلى تغيير العالم ليس بالوهم وإنما بالإيحاء إلى ما يجعل الحلم ممكناً.

العزلة الأليفة، غير الوحشية، هي البحر الذي لا يمكن لكائنات الشاعر أن تعيش إلا فيه. إنها بالأحرى توحد صوفي بالأشياء يمكن الشاعر من الانفراد خارج الكون كي يحقق رؤياه الخاصة وإسهاماته الذاتية والروحية في بث هواء أنقى إلى الكون، مثلما تفعل الأشجار في الليل وهي وحيدة مع نفسها منعزلة تماماً عن كامل الوجود وهي في الوقت نفسه تمثل قلب الوجود النابض.

حين يهبط الشاعر إلى الدون وتتآكله الهفوات فيستقل عنه المسؤولية، مثلما تستقل عن فاقد الصداقية أو المجنون. وعندها يغدو حجر عثرة في طريق الإبداع الجديد يتنكر للذات والمثل الجمالية ذات السلوكيات العالية، ويبتعد الشاعر عن أن يكون معلماً.

الشاعر، في حقيقته، أنطولوجياً وتاريخياً، هو الساحر الأول والمعلم الأول. تعامل مع الأحجار فأنطق منها الطيور وتعامل مع الرمال فأنطق منها الينابيع وتعامل مع البرية فجعل منها فردوساً. ولأن أداته اللغة فقد جعل منها مطرقة يكسر بها جمود العقل وقرشات بين بها رهافة العاطفة.

الشاعر الحقيقي لا يغفو إلا والعالم بين جفنيه يحنو عليه ويرقب همومه التي يأمل أن تنقشع مع خيوط الصباح. فهو والأمل مقتولان كشعيرات الخيط.. قد يحزن ولكنه لا ييأس، وقد ينتحر ولكنه لا ينتهي كما يقول همنغواي.

الانفعال بالكون هو قلب الشاعر ومتعلق أفقه، والكلمات هي العصافير النارية التي يطلقها من فمه نحو الأبدية والطبيعة. وعلى الرغم من أنه لا يحب أن يتنفس بدور الواعظ إلا أنه لا يقول الكلمات جزافاً ولا يحب أن تسيل أبيات شعره سيل المياه الهدورة.

ولأن الحياة قصيرة جداً بالنسبة إليه فهو لا يضيع وقته في حصد "لحية السماء أو جرجرة برملم الأجدوى". له رسالة كبرى وقد عقد مع الأنبياء عهد مصداقات لكنه ليس نبياً ولا كاهناً، إنه.. يحاول أن يكون شاعراً.

الشاعر الحقيقي لأنه معنى، فهو مشغول بالعالم أكثر مما ينشغل العالم به. وحينما يسعى الكثيرون إلى جذب الأنظار إلى أنفسهم ويمعنون في تلميع صورهم يعملون على نشرها بين الناس، يجلس الشاعر الحقيقي في زاويته متأملاً صيرورات العالم وتحولاتها لينسج صورته الخالدة لها مكتفياً المشاهد في مجازات واستعارات وتشبيهات وحتى في سلوكيات تتجدد كل يوم لتمنح العالم دفقاً جديداً مثلما تمنح الينابيع البرية دفقها من الماء البلوري الصافي إلى العالم كي يخضر ويتجدد.

قد يتمحور العالم لشاعر في كلمة مشحونة بالدلالة أو قصيدة مركبة أو وردة نابتة أو يتعة على شجرة أو طير محلق أو طفل يكركر أو يبكي أو قراءة أو مطر أو برق أو مساحة شاسعة من ممتدة يلفها السراب، ووو..

وكثيراً ما يتمحور في امرأة. المرأة هي أغنى ينابيع الشاعر التي ترفده من روحها وجسدها، فما هو أغنى ينابيع الشاعر؟ هل هو الرحل جسداً أو روحاً؟

الجنون ليس هوية من هويات الشاعر، كما يتوهمون. الجنون تكتيك، الجنون سبيل من سبل الشاعر لعبور الواقع كي يصل إلى مدينة الشعر. الجنون عزوف الشاعر عن تلقي الواقع كما هو، إنه، بالأحرى، مرآة من مرايا الشاعر الكثيرة التي يرى فيها صوراً محتملة للحياة.

على أن الخيبة، بعد الانتكاسات المتكاثرة واحدة من تلك المرايا. الخيبة فرع من فروع شجرة الحزن الوارفة الظلال التي تحتضن الشاعر حينما يرجع مهزوماً من استحالة خلق قصيدة جديدة لا تكرر ما قاله الآخرون. وإذ لا تأتي القصيدة إلا نادراً يكون الحزن هو المقيم في أعماق الشاعر والفرح متحولاً.